المبحث الرابع

جماليات المرأة الأندلسية

اختُلِف في النظر إلى الجميل لاختلاف الشعور والإحساس؛ لأن مرجع ذلك إلى الذوق، والأذواق متباينة، ولعل سبب هذا التباين هو درجة رقي الحضارة والبيئة، لكن هناك خطوطًا عامة يتفق عليها الجميع، متمثلة بـ (التناسق والانسجام والاعتدال)، فهذه مقاييس الجمال يقيسون بها وينسبون إليها، لذا اختُلِفَ في جمال المرأة، فمنهم من رأى الجمال في البدينة المكتنزة، ومنهم من رآه في الدقيقة كالعود، ومنهم من أبصره في المجدولة التي هي بين الهزال والسمن، ومنهم من أرجعه إلى الروح دون الجسم، أو العكس أو لكليهما معًا(١).

والمرأة ملهمة الرجل في نتاجه الثقافي والأدبي، فكانت وحيًا جميلاً ينسج في سبيلها الشاعر قصائده، واستلهم من جمالها ووجودها الأنثوي أدبه، لذلك تعد شريكة للرجل في إبداعه(٢).

إنّ العربي أدرك نسبية الجمال وصعوبة الاتفاق عليه، لكن هناك معاني عامة متداولة عندهم هم راضون عنها ومتفقون عليها بشكل عام، إلا أنها تتبدل وتتطور بتقدم المجتمعات واختلاف العصور، فما كان جميلاً عند الشاعر الجاهلي غير ما هو عند الأموي أو العباسي والأندلسي أيضًا، ولكنهم جميعًا يصدرون عن مفاهيم ورؤى جعلتهم يؤثرون أوصافًا وتعابير جمالية متقاربة في المرأة، وبسبب هذا التقارب لبيئاتهم الحضرية، ووحدة اللغة، وتشابه معانيهم، كانت النتيجة أن جاءت صورة المرأة الأندلسية وقيمها الجمالية مشابهة ومكملة لمفهوم الجمال الأنثوي العربي القديم، مع توافر بعض الاختلاف اليسير الذي يعود للبيئة المعاشة والظروف التي ترافق ذلك العيش براحة وأمن أو خوف وبؤس.

---

(١) ينظر: جمال المرأة عند العرب: ٧-٨، وينظر: ألوان من الجمال والغزل: ١٣٩.
(٢) ينظر: الرؤية الذاتية في شعر المرأة الأندلسية (رسالة ماجستير): ٧٥.

ولم يقتصر تأثير المرأة على عصر دون آخر، بل كانت المرأة رقيقة المشاعر تفيض عاطفة وحبًّا، فهي الأم والأخت والحبيبة والزوجة، وهي مصدر سعادة الرجل أو شقائه، وهي ملهمته والعنصر الفاعل من عناصر شاعريته، لهذا سنتحدث عن جمال المرأة من خلال ذوق شريكها في الحياة (الرجل).

لقد حافظت المرأة على سمو مكانتها وموقعها المؤثر في المجتمع العربي منذ العصور الأولى إلى وقتنا الحاضر(١)، ولذا استمرت معها صفاتها الجمالية ونظرة المجتمع لها على أنها محرّكة لكثير من أحداث التاريخ المهمة، فكم من رجل حُكم من خلال جمالها وكم من رجل هامَ على وجهه أو قُتِلَ بسبب هذا الجمال، فهذا الجمال ـ إن أرادت المرأة ـ هو أداة للقتل أو الإحياء.

وقد أحب العربي المرأة من كل الألوان (البيضاء والسمراء والشقراء... إلخ)، فالمرأة جميلة عنده ولا تعصب ولا تميز في ذلك، إلا أن ذلك يحكمه الذوق الفردي، ولكن بشكل عام كانت نظرته تنصف المرأة في ذلك(٢). وهناك اختلاف بين جمال المرأة في البادية عنها في الحضر، فالأولى كانت على طبيعتها من دون تجمل أو تصنّع، وهذا التجمل والتصنع من صفات المرأة التي تعيش في الحاضرة. ولهذا الأمر أثر في نظرة الشاعر العربي لها(٣)، فمدحَ جمال الأولى وذمَّ الثانية أو العكس. وهذا التفريق غير موجود عند الأندلسيين لأن بيئتهم مختلفة عن بيئة الجزيرة العربية الصحراوية، فالمرأة الأندلسية عاشت حياتها في أحضان حضارة مترفة جميلة زاهية فأثرت في شكلها ولونها، وحتى في صفاتها الخُلُقية والنفسية.

فأما رؤية الإسلام للإنسان فهي لا ترسم حدودًا أو تمييزًا بين الرجل والمرأة على مستوى الحقيقة الإنسانية، فهما يجسدان ماهيّة إنسانية واحدة، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾(٤)، والتمايز الوحيد الذي يقرّه الإسلام هو التمايز الخَلقي الذي له علاقة بالجسد(٥)، لهذا جعل

(١) ينظر: المرأة في الشعر الأموي: ١١.
(٢) ينظر: مفهوم الجمال في الثقافة العربي، (بحث): ٥٥.
(٣) ينظر: العقل في التراث الجمالي عند العرب: ١٥٩، وينظر: جمال المرأة عند العرب: ٦٩.
(٤) سورة النساء: من الآية ١.
(٥) ينظر: جواري الأمراء والخلفاء الأمويين في الأندلس طروب وصبح أنموذجًا، (بحث): ٤.

للجمال شأنًا عظيمًا من خلال أحاديث كثيرة تعظم من شأن الجمال والاهتمام به[١]، فقد قال الرسول ﷺ: (خير النساء من تسره إذا نظر وتطيعه إذا أمر ولا تخالفه في نفسها ومالها)[٢]، وقوله: (إنّ الله جميل يحب الجمال)[٣]، فالمرأة يقاس جمالها من خلال تأثر المقابل بها، «فإذا كان النظر إليها يسرّ الروع فهي رائعة»[٤]، والروع هو القلب أو مكان الفزع منه، أي إن أثرت في نفسية المتلقي (الرجل) ومشاعره أرضت غرورها وأوصلت هذا الجمال لقمة تألقه. ومعاينة الجمال مباشرة أقوى في النفس من معاينة الصورة؛ لأنّ «اللذة الحادثة من رؤية امرأة جميلة أكبر بكثير من رؤية تمثال لتلك المرأة، فاللذة من رؤية الشيء نفسه نابعة من حس ذلك الشيء، أما اللذة من المحاكاة فإنها نابعة من التعجب»[٥].

ولعبت المرأة عند العرب أثرًا مهمًّا من خلال الإلهام وإعطاء الحافز للرجل، وهذا لا يقل عن الإبداع نفسه، فلولا الحافز والدافع عند الإنسان لما أبدع شيء، فأسهمت من خلال جمالها في ترسيخ وجودها، لهذا كانت المدللة عند الرجل، المعذِّبة التي أفقدته بصيرته وعقله وبها كان يعرف بين الناس[٦].. ولذا نجدها قد أثرت بشكل كبير على الحياة العامة والخاصة، فدُوِّن ذلك في الأدب والشعر[٧].

إنّ العربي لم يستطع أن يكبح جماح عاطفته لأنه يعيش ويعجب بالجمال، وهو بطبيعته ميال إلى المرأة، متأثر بجمالها إلى حد ضعفه أمامها وأمام هيمنتها عليه[٨]. لهذا وجدنا من الملوك والأمراء أو الشعراء من كان أسيرًا لهذا الجمال لا يخرج عن طوعه.

وأما جمال المرأة الأندلسية فقد انتقل إليها أنموذج الجمال المشرقي، فالجمال الأموي انتقل بمفهومه إلى الأندلس، وبهذا نجد عناصر الجمال وتشبيهاتهم متشابهة[٩].

(١) ينظر: جمال المرأة عند العرب: ٣٣.
(٢) المستدرك على الصحيحين: ١٧٥/٢.
(٣) م. ن: ٧٩/١.
(٤) دراسات فنية في الأدب العربي: ٢٨.
(٥) العقل في التراث الجمالي عند العرب: ٢٣٨.
(٦) ينظر: المرأة العربية في منظور الدين والواقع دراسة مقارنة: ١٦، ٥٦.
(٧) ينظر: إشبيلية في القرن الخامس الهجري: ٩٠.
(٨) ينظر: الإنسان الأندلسي بين الواقع العربي وما طمح إليه: ١٥٦.
(٩) ينظر: جمال المرأة عند العرب: ٧٤.

وقد كان تأثير جمال المرأة الأندلسية تأثيرًا حسيًّا ومعنويًّا، وهذا ما سنورده ونفصل القول فيه لاحقًا.

الجمال هو ما نحس بانجذاب نحوه، سواء كان هذا الجمال حيًّا أم جامدًا، فإن قُدر على لمسه وتحسسه سُمّي (الجمال المادي) الحسي، وإن كان العكس، أي لم نستطع لمسه سمي (معنويًّا)، وهو أقوى أثرًا وأبعد مدًى لخلوده، وبقائه معلقًا في النفس الإنسانية، وقد صور الشعر العربي في المشرق والمغرب هذين النوعين من الجمال (المادي والمعنوي). وسنقف على أثر كلٍّ منهما عند الشاعر الأندلسي ونظرته لجمال المرأة، ونبدأ أولاً بـ (الجمال المادي) الحسي المتمثل بالمظهر الخارجي من لون بشرة أو شَعَر وتفاصيل الوجه. .. وغيرها.

لون البشرة:

إنّ أول ما تناوله الشاعر الأندلسي عند حديثه عن جمال المرأة هو لون بشرتها، فهناك الأبيض والأصفر والأسود... إلخ، ولكل لون معجبوه ومحبوه، وفي كلٍّ منها شعر بمدحه وبفضله على غيره، لكن الأندلسي بطبيعته العربية قد مال إلى اللون الأبيض أكثر من غيره، فقد قيل إن البياض نصف الحسن، وهو طراز كل جمال، وهو آية الملاحة(١). و«للبياض أعظم الدلالة على الذوق العربي؛ وذلك لأن العرب قد أحبّوا البياض ووسموا به كل ما أحبته نفوسهم وبغضوا السواد ووصموا به كل ما كرهته نفوسهم، فالمثل الأعلى للجمال عندهم هو البياض، ومن هنا تغزلوا بالمرأة البيضاء الجميلة وجعل بعضهم رداء الحسن»(٢). وقد وقف الشاعر الأندلسي أمام بياض الوجه بوصفه قيمة جمالية توصف به المرأة، يقول في ذلك ابن عبد ربه مشبهًا حبيبته لبياضها بالريم الذي يسبي القلوب بجماله:

فـي الكِلّـةِ الصَّـفراءِ ريـمٌ أبـيضُ ... يَسْـبي القلـوبَ بمقلتَيـهِ ويُمـرِضُ
لمَّـا غَـدا بَـينَ الحُمُـولِ مُقَوَّضًـا ... كـادَ الفُـؤادُ عَـنِ الحيـاةِ يُقَـوّضُ(٣)

ويقول أيضًا:

(١) ينظر: م. ن: ٨٥، وينظر: ألوان من الجمال والغزل: ٣٠.
(٢) الصورة البدوية: ٣١١.
(٣) ديوان ابن عبد ربه: ١٠٠. الكلة: الستر الرقيق يُخاط كالبيت يُتوقى به من البق. لسان العرب: مادة (كلّ). الحُمول: ما يكون على البعير. لسان العرب: مادة (حمل).

بَيضـــاءُ مَضْـــمومةٌ مُقَرْطَقَـــةٌ تَنقـــدُّ عـــن نَهـــدِها قراطقُهـــا
كَأنمـــا بـــاتَ ناعِمًـــا جَـــذِلاً فـــي جَنَّـــةِ الخُلـــدِ مَـــن يعانقُهـــا[1]

وقد اعتاد الشاعر العربي والأندلسي حين تزوره المحبوبة في ظلمة الليل أن يذكر بياضها الذي يذهب بسواد الليل المظلم، فهذا ابن شُهيد يقول:

ألا بـــأبي زائِـــرِي فـــي العـــتَمْ بوجْـــهٍ يُجلِّـــي سَـــوادَ الظَّلَـــمْ
تَكَـــتَّم باللَّيْـــلِ فـــي ظِلِّـــهِ وهـــل يُمْكِـــنُ الصُّـــبْحُ أن يُكتَـــتَمْ[2]

وهناك من الشعراء من يمزج البياض مع حمرة الخد عند الخجل، فابن عبد ربه يقول:

أبِيـتُ تحـتَ سـماءِ اللهـوِ مُعتنقًـا شـمسَ الظهيـرةِ فـي ثـوبٍ مـن الغَسَـقِ
بَيضـاءَ يحمـرُّ خَـدَّاها إذا خجلـتْ كمـا جَـرى ذهـبٌ فـي صـفحَتي وَرَقِ[3]

والبياض قد يمازج اللون الأحمر والأصفر وهما يزيدان من حسن المرأة، فالحمرة تلازم المرأة البيضاء حين خجلها وحين خروجها، وهي دلالة على صحتها وحيائها. وأما الصفرة التي تعتري النساء البيض فلكثرة استتارهن وملازمتهن الدار، وذهب بعضهم إلى أنّ المرأة تكون بيضاء في الصباح صفراء عند العشية، لأن المرأة رقيقة البشرة صافية اللون تتلون بلون الهواء، والهواء عند المساء يصفر باصفرار الشمس ويزهر عند شروقها[4]. وفي هذا يقول يحيى بن حكم الغزال:

فارِعَـــةُ الجِسْـــمِ هَضـــيمُ الحَشَـــا كَـــالمُهرَةِ الضـــامِرِ لَـــم تُركَـــبِ
أَو دُرَّةٍ ســـاعَةَ مَـــا اســـتُخرِجَت لَـــم تُمـــتَهَن بَعـــدُ وَلَـــم تُثقَـــبِ
مَشـــرَبَةُ اللَّـــونِ مُتـــوعَ الضُّـــحى صَـــفراءَ بِالآصـــالِ كَالمُـــذهَبِ[5]

ومزج الصفرة مع البياض ليس عن مرض أو عيب وإنما زيادة جمال يعطيه مزج هذين اللونين معًا. فهذا أحمد بن فرج الجياني يعلل ويدافع عن اصفرار وجه حسن، ويرجعه لعامل نفسي ألا وهو الخوف، لنستمع لقوله:

(١) م. ن: ١٢٣. والمقرطقة: لابسة القرطق، وهو ضرب من الملابس. ينظر: ديوان ابن عبد ربه: ١٢٣.
(٢) ديوان ابن شهيد: ١٥٢.
(٣) ديوان ابن عبد ربه: ١١٧.
(٤) ينظر: جمال المرأة عند العرب: ٨٦.
(٥) ديوان يحيى بن حكم الغزال: ٤١. متوع: اشتدت حمرته. لسان العرب: مادة (متع).

قـالوا بـه صـفرةٌ عابـت محاسـنَهُ فقلـتُ مـا ذاك مـن عيـبٍ بـه نـزَلا
عينـاهُ تطلـبُ فـي آثـارِ مـن قتلـت فلسـت تلقـاه إلا خائفًـا وَجِـلا[1]

ويعود ابن عبد ربه يمدح البيضاء التي اكتست صفرة بنعيمها، يقول:
بَيضـاءُ أنماهـا النَّعـيمُ بِصُـفْرَةٍ فَكَأَنَّهـا شَـمْسٌ بِغَيـرِ شُـعاعِ[2]

وهذا الرمادي يقول:
وَبَياضُـهُ فـي شُـقرَةٍ فَتقارنـا حُسـنًا بِـلا ضـدٍّ فَكانـا أشـبَها
كَسَلاسِلِ الذَّهبِ المُورَّسِ فَوقَ وَجـ ـهٍ مِـن لُجـين بالملاحَـةِ قَـد زَهـا
وَكَـذا الصَّـباحُ بَياضُـهُ فـي شُـقرَةٍ فَكَأَنَّـهُ بِهمـا غَـدا مُتَشَـبِّها
وَإِذا بَـدا التَّوريـدُ فـي وَجَناتِـهِ فَكَأَنَّـهُ صَـرفُ المدامَـةِ فـي المَهـا[3]

أمّا أبو مروان الجزيري فقد جعل من محبوبته لشدة بياضها وجمالها ندًّا لنور القمر، حتى إنه يخجل فيتوارى إذا بدت وظهر وجهها، يقول:
أرى بَـدرَ السَّـماءِ يَلـوحُ حينًـا فَيَبـدو ثُـمَّ يَلتَحِـفُ السَّـحابا
وَذاكَ لِأَنَّـهُ لَمّـا تَبَـدّى وَأَبصَـرَ وَجهَـكَ اسـتَحيا فَغابـا
مَقـالٌ لَـو نُمـي عَنّـي إِلَيـهِ لراجَعَنـي بِتَصـديقي جَوابـا[4]

ونجد المعتمد بن عباد الملك الشاعر الفارس مسحورًا بالمرأة البيضاء والسمراء على حد سواء، فهو يقول:
وَكَـم لَيلَـةٍ قَـد بِـتُّ أنعَـمُ جُنحَهـا بِمُخْصَـبَةِ الأرداف مُجدَبَـةِ الخَصـرِ
وَبـيضٍ وَسُـمرٍ فـاعِلاتٌ بِمُهجَتـي فِعالَ الصِّفاح البيضِ وَالأسلِ السُّمرِ[5]

الشَّعَر:

كثيرًا ما تغنى العربي بشعر المرأة، وهو من أبرز ما يجملها، إذ ينسدل كجدائل الليل، ويُرغب في «الشَّعر الكثيف الطويل السبط الناعم الذي يتدلى إلى ما تحت ردفي

---

(١) أحمد بن فرج (بحث): ٢٣١.
(٢) ديوان ابن عبد ربه: ١٠٨.
(٣) شعر الرمادي: ١٣٣-١٣٤.
(٤) شعر أبي مروان الجزيري الأندلسي: ١٢٣.
(٥) ديوان المعتمد بن عباد: ١٢.

المرأة غدائر وضفائر»[١]، وأحبَّ الأندلسي اللون الأسود والأشقر في شعر المرأة وتغنى بهما في شعره.

ووجه المرأة «تزينه غدائر الشَّعر مصففة فوق الجبين ومرسلة على جوانب الوجه ملتوية كأنها ذيول العقارب... أما ألوان الشعر والبشرة المفضلة عندهم فأمرٌ فيه خلاف، وإن كنا نعرف أنّ بني أمية الأندلسيين كانوا يفضلون الشقراوات»[٢]. فهذا الشريف الطليق (ت٤٠٠هـ) الذي كان يتغنى بحبه للشقرة يقول:

غُصُنٌ يهتزَّ في دِعْصٍ نَقا ... يَجتني منه فؤادي حُرَقا
أطلع الحسنُ لنا من وجههِ ... قمرًا ليس يُرى مُمحَّقا
ورنا عن طَرْفِ ريمٍ أحور ... لحظُهُ سهمٌ لقلبي فُوِّقا
باسمٌ عن عِقْدِ دُرٍّ خِلتُهُ ... لبتْهُ لثناه العُنُقا
سالَ لامُ الصدغ في صفحتِهِ ... سيلان التبر وافى الوَرِقا
فتناهى الحسنُ فيه إنّما ... يحسُنُ الغصنُ إذا ما أورقا[٣]

وهذا ابن حزم يورد في كتابه (طوق الحمامة) أنه أحبَّ في صباه جارية شقراء الشعر، فما استحسن بعد ذلك سوى الشقرة[٤]، وهو الذي دافع عن الشقرة حين عاب ذلك بعضهم، بل نراه يهاجم السواد بشكل يبعد عنه الجمال جاعلاً إياه صفة لأهل النار ومبعدًا صاحبه عن كل حكمة، يقول:

يعيبونها عندي بشقرةِ شَعرِها ... فقلت لهم: هذا الذي زانها عندي
يعيبون لونَ النور والتبر ضلةً ... لرأي جهولٍ في الغوايةِ ممتدِّ
وهل عاب لونَ النرجس الغضِّ عائبٌ ... ولون النجوم الزاهرات على البعدِ
وأبعدُ خلقِ الله من كل حكمةٍ ... مفضِّل جُرمٍ فاحم اللون مسودِّ
به وصفتْ ألوان أهل جهنم ... ولبسة باكٍ مثكلِ الأهل محتدِّ
وقد لاحت الرايات سودًا تيقنتْ ... نفوس الورى أن لا سبيلَ إلى الرُّشدِ[٥]

(١) م. ن: ٩٢.
(٢) الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه: ٨٥.
(٣) مع شعراء الأندلس والمتنبي، سير ودراسات: ٧٢-٧٣. دعص: قُور من الرمل مجتمع. لسان العرب: مادة (دعص).
(٤) ينظر: طوق الحمامة في الألفة والألّاف: ٢٨.
(٥) ديوان ابن حزم الأندلسي ٥٦-٥٧.

والرمادي يقرن بياض البشرة مع شقرة الشعر، إذ يكونان كسلاسل الذهب، وهذا ما أوردناه سابقًا حين تحدثنا عن لون البشرة، يقول:

وَبَياضُـــهُ فـــي شُـــقرَةٍ فَتقارنـــا حُســـنًا بِـــلا ضـــدٍّ فَكانـــا أشـــبَها
كَسَلاسِلِ الذَّهبِ المُورَّسِ فَوقَ وَجـ ـــهٍ مِـن لُجـين بِالملاحَـةِ قَـد زَهـا[1]

ولم يكن إعجاب الأندلسي بالشقراوات فيه إرضاء للحكام من بني أمية الذين عُرف ميلهم نحوهنّ، وإنما هو قيمة جمالية كانت منتشرة في الأوساط العامة، فالأندلس كثر فيها وجود اللون الأشقر وبياض البشرة عكس ما هو موجود في الجزيرة العربية، والدليل على هذا أن الذوق الأندلسي استمر إلى ما بعد حكم بني أمية وخلافتهم في الأندلس.

فهذا ابن زيدون الذي هو من أشهر شعراء الغزل في عصر الطوائف وفي عصور الأندلس كلها كان يتغنى بالشقرة، فهو القائل في ولاّدة:

أو صـــاغَهُ وَرِقًـــا مَحضًـــا وَتَوَّجَـــهُ مِـــن ناصِـــعِ التِّبـــرِ إِبـــداعًا وَتَحسـينا[2]

ويقول أيضًا:

عاوَدتُ ذِكرى الهَوى مِن بَعدِ نِسيانِ وَاســتَحدَثَ القَلــبُ شَــوقًا بَعــدَ سُــلوانِ
مِــن حُــبِّ جارِيَــةٍ يَبــدو بِهــا صَــنَمٌ مِــن اللُّجَــينِ عَلَيــهِ تــاجُ عِقيــانِ[3]

ولسواد الشعر مكانته عند الشاعر الأندلسي أيضًا، فجمال المرأة البيضاء التي تلف بياضها بشعر أسود من التشبيهات القديمة، فهم أحبوا الشعر الأسود الفاحم الذي يكون كالليل الذي يلف وجهًا كالصباح وهما متضادان يظهران جمال المرأة الأندلسية بشكلها الرائع.

فالرمادي الذي كان مفتونًا بالشقرة يرضى عن هذا الجمال ـــ سواد الشعر ـــ ويمدحه في قوله:

وَلَيلَـــةٍ لمـــةٍ تبقـــى العُيـــونُ الـــ رومـــقُ مِـــن دُجاهـــا فـــي ضَـــلالِ
وَكُنـــتُ عَـــنِ اللَّيـــالي غَيـــرَ راضٍ بِحـــالٍ إِذ جَنَـــت تَغييـــرَ حـــالي

(١) شعر الرمادي: ١٣٣، وينظر: ٥٢. الورس: الصبغ. لسان العرب: مادة (ورس).
(٢) ديوان ابن زيدون: ١٦٧.
(٣) ديوان ابن زيدون: ١٨١.

فَلَمّـــا أن رَأيـــتُ اللّيـــلَ شِـــبهًا لِلِمَّتِـــهِ رَضِـــيتُ عَـــنِ اللّيـــالي[1]

وهذا ابن زيدون يصف بياضها مع سواد شعرها ويتعجب من تآلف الضدين اللذين كوّنا جمالاً وحُسنًا يأخذ الألباب، فلنتأمل قوله في ذلك:

يـــا مَـــن تَـــآلَفَ لَيلُـــهُ وَنَهـــارُهُ فَالحُســـنُ بَينَهُمـــا مُضـــيءٌ مُظلِـــمُ
قَـد كـانَ فـي شَـكوى الصَّـبابَةِ راحَـةٌ لَـو أَنَّنـي أَشـكو إِلـى مَـن يَـرحَمُ[2]

ومن عجيب شعر المتلمس سليمان بن بطال الفقيه (ت تقريبًا سنة ٤٠٠ هـ)[3] هو إجراء مقارنة بين السواد والشقرة وانتصاره للشقرة في آخر الأمر، يقول:

وشـــادِنَين أَلَمَّـــا بـــي علـــى مِقَـــةٍ تنَازعـــا الحُســـن فـــي غايـــات مُسْـــتَبِق
كـــأن لِمَّـــةَ ذا مـــن نَـــرجسٍ خُلقـــت علـــى بَهـــارٍ وذا مســـكٌ علـــى وَرِقِ
وحكَّما الصدّبّ في التّفضيل بينهما ولـــم يَخافـــاً عليـــه رِشـــوَةَ الحَـــدَقِ
فقـــام يُـــدلي إليـــه الـــرّيمُ حُجَّتـــه مبيّنًـــا بلســـان منـــه مُنطلـــقِ
فقـــال وجْهـــيَ بـــدرٌ يُستضـــاء بـــه ولـــونُ شَـــعريَ مقطـــوعٌ مـــن الغسـقِ
وكحـل عينـيَ سِـحرٌ للنُّهـى وكـذا ك السّحر أحسن ما يُعزَى إلى الحَدقِ[4]

إنّ الذوق الأندلسي فيما تقدم قد فضّل الشقرة على السواد جمالاً ومنظرًا لشعر المرأة، وهذا راجع للبيئة الجميلة وتأثرهم بالنساء والجواري التي كانت تأتيهم من المدن الأوربية، ففُتن بها العربي الذي اعتاد كثيرًا سواد الشعر.

العين:

من العسير على الإنسان مهما أُوتي من عذوبة اللفظ وقوة البلاغة ورقيق المعاني أن يصف بكلمات محدودة جمالاً صنعه وأبدعه الخالق سبحانه وتعالى. فالعين كيان جمالي متعدد المعاني والصفات اتخذها العرب مقياسًا للجمال، وأصبحت عند الشاعر

(١) شعر الرمادي: ١١٠.
(٢) ديوان ابن زيدون: ١٨٥.
(٣) أبو أيوب سليمان بن محمد بن بطال البطليوسي (المتلمس)، كان فقيهًا مقدمًا شاعرًا محسنًا كثير الشعر، كان قريبًا من الأربعمائة. ينظر: التشبيهات من أشعار أهل الأندلس: ٣٠٧، وجذوة المقتبس: ٣٤٤/١، وبغية الملتمس: ٣٧٩/٢، ونفح الطيب: ٢٩٢/٣.
(٤) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس: ١٢٦، وينظر: المطرب: ٨٥-٨٦.

عالمًا كبيرًا بألوانه المختلفة، تنسكب فيه زرقة السماء والبحر، ويذوب فيه سواد الليل كحلاً، ومن سحرها قتلاً، فهي التي تأسر وهي التي تفتح القلب للحب، وهي تفعل بالقلب فعل الخمر(١).

من خلال العين يرسل الإنسان رسائله للآخر وتبدأ بينهما أولى العلاقات، فهما أول من يتآلف بين المحبين، وأول من يبدأ السلام بين المشتاقين، وهي تخاطب كل إنسان بلغته التي يفهمها وهي أسرع من السهم إلى قلب المحب العاشق.

وأحب العربي من العيون الحور (أي شديدة السواد) والكحلاء والنجلاء (أي الواسعة) وإلى أن تكون أهدابها طويلة فهي وطفاء؛ لأنها تزيد العينين جمالاً(٢).

وما من شاعر كتب شعرًا غزلاً كان أم غيره إلا وتحدث عن العيون ونظراتها القاتلة؛ لأنها تصف الجمال ومبعث الفتنة، فهي أنطق الجوارح وأبلغها، لهذا ولع بها الشعراء وأكثروا من ذكرها والإطراء على جمالها حتى إنهم رمزوا بها إلى الجمال فأطلقوا الجزء على الكل(٣).

فهذا يحيى بن هذيل القرطبي (ت٣٨٩هـ) يقف أمام العيون الحور فيعلم أنه لن يسلم منها، فاستسلم طائعًا راضيًا بالسقم، يقول:

وأحورَ وَسْنانِ الجفونِ كأنّهُ ... قضيبٌ من الريحان لدنٌ منعّمُ
نظرتُ إلى أجفانهِ أول الهوى ... فأيقنتُ أنّي لستُ منهنّ أسلمُ
كما أنّ إبراهيم أوّل مرّةٍ ... رأى في الدّراري أنّه سوف يسقمُ(٤)

وهذا ابن عبد ربه يقول:

أنا في اللّذّاتِ مَخْلوعُ العِذارِ ... هائمٌ في حُبِّ ظَبيٍ ذِي احْورارِ(٥)

ويقول في أخرى:

تَتْرُكُ عَيْناهُ مَنْ أبْصَرَهُ ... مُخْتَلطًا عَقْلُهُ كُلَّ اخْتِلاطْ(٦)

---

(١) ينظر: جمال المرأة عند العرب: ٩٤.
(٢) ينظر: م. ن: ٩٥.
(٣) ينظر: ألوان من الجمال والغزل: ٤٤.
(٤) شعر يحيى بن هذيل القرطبي الأندلسي: ١١٩.
(٥) ديوان ابن عبد ربه: ٨٤.
(٦) م. ن: ١٠١.

فمن يبصر هذه العيون يذهب عقله وتختلط عليه الأمور ويفقد رشده، فلا يعلم من أمره شيئًا سوى أن ينقاد وراءها مذعنًا لها.

أما ابن هانئ فيعطي السحر للعيون وهو ما كان يعرف في بابل من السحر وانتماء الطرف يشير إلى مدى الساحرية التي تمتلكها العيون، يقول:

المُــــذْنَفَانِ مــــنَ البرِيّـــةِ كلّهَـــا جســـمي وطَـــرْفٌ بـــابليٌّ أحـــوَرُ(١)

ولكن ابن زيدون قد فهم الهوى من خلال وحي العيون، وما أرسلته إليه من رسائل وحاورته من خلالها، حتى إنه أصبح يعرف معنى الهوى، يقول:

فَهِمتُ مَعنى الهَوى مِن وَحيِ طَرفِكِ لــــــــــــــي إِنَّ الحِـــوارَ لَمَفهـــومٌ مِـــنَ الحَـــوَرِ(٢)

إنّ هذه العين التي أفهمته معنى الهوى هي نفسها التي أوردته السقام فيقول عنها:

وَأحـوَرُ سـاجي الطّـرفِ حَشـوُ جُفونِـهِ سَـــقامٌ بَـــرى الأجســـامَ مِنـــهُ سَـــقامُ(٣)

وأمّا الرمادي فيحيل السقام على العينين اللتين يغلب النعاس عليهما فتبدوان سقيمتين لكن دون وجع، فهي خاضعة، ويعلل ذلك بأنها كما تدين تدان، أي إنها أسقمت غيرها، لذلك يجب أن تذوق ما أذاقت من حولها، يقول:

وَأحـــورَ وَســـنانِ الجُفـــونِ كَأَنَّمـــا بِـــهِ سَـــقَمٌ فـــي لَحظِـــهِ غَيـــرُ موجِـــع
كَـــأَنَّ بِعَينَيـــهِ خُضـــوعًا وَمـــن رُمـــي بِأَلحاظِـــهِ تِلـــكَ الخَواضـــعِ يخضَـــعِ(٤)

وفي فتور العينين وذبول الجفون يقول ابن شخيص الأندلسي (ت٤٠٠هـ):

ومعتلـــة الأجفـــان مـــا زلـــت مشـــفقًا عليهـــا ولكنـــى ألـــذ اعتلالهـــا
جفـــون أجـــال الحســـن فـــيهن فتـــرة فحـــل عـــرى الآجـــال منـــذ أجالهـــا(٥)

ومن الشعراء من تغزل بزرقة العين، فهذا ابن عبد ربه تصيده عيون شهلاء، وهي زرقة تخالط سوادها، يقول:

---

(١) ديوان ابن هانئ: ٣٦٢.
(٢) ديوان ابن زيدون: ٨.
(٣) م. ن: ٢٠٧.
(٤) شعر الرمادي: ٨٤.
(٥) شعر ابن شخيص الأندلسي: ٧٢.

خَرَجْـتُ أجْتـازُ قَفْـرًا غَيـرَ مُجْتـازِ   فَصـادَنِي أشـهَلُ العَينَـينِ كالبـازِي[١]

لقد كانت العيون الحور المسيطرة على خيال الشاعر الأندلسي و هي تمثل قيمة جمال العيون عنده، و هو استمرار لما كان عليه العربي المشرقي من تفضيل العيون الحور على غيرها لإعجابه الشديد بها، و هو يمثل تعلقهم بمقاييس التراث العربي الذي ظلَّ ملازمًا للإنسان الأندلسي في كل شيء، مع الاختلاف في المشاعر والاتجاهات والرؤى التي يحددها العصر والحدث والمكان...

الخد:

رُبِطَ جمال الخدود بتوردها واحمرارها، و هو مما يوحي بالشباب والنضارة عند من وصفه بها، وهذا الاحمرار مرتبط بالحالة الشعورية عند المرأة، فيحمر خداها حياءً وخجلاً[٢]. و«الخد المستحب هو الأسيل أي السهل الطويل غير المنتفخ، والجنة من الخد ما ارتفع منها، ولون الخد المفضل هو الأزهر والأحمر»[٣].

فابن هانئ يذكر تدرج احمرار خد محبوبته خجلاً، و هي من أجمل ما تمتاز به المرأة العفيفة، يقول:

خالَسـتُه نَظَـرًا وكـانَ مُـوَرَّدًا   فـاحمرّ حتـى كـاد أن يتلَهّبـا[٤]

ونجد الرمادي يخاف على وجنتي حبيبته من نظره كي لا تصاب بعينه، مع أنها ظالمته، إلا أنّ الحب يفعل بصاحبه ويرققه حتى يخاف على من يحب من النسيم، ومن نظر عينيه إليها، ويصف خجلها واحمرار خدها بسبب كثرة العيون التي ترمقها، يقول:

هُـوَ ظـالِمِي لَكِـن أرِقُّ عَلَيـهِ   مِـن أن أجيـلَ اللّحـظَ فـي خَدَّيـهِ
أعفَيـتُ رِقـةً وَجنَتَيـهِ مِـن أذى   عَينـي وَمـا أُعفِيـتُ مِـن عَينَيـهِ
وَكَـأنَّ دُرَّ الخَـدِّ يُكسـى حُمـرَةَ الـ   ـياقوتِ مِـن نظـرِ العُيـونِ إلَيـهِ
وَكَـأنَّ خَجلَتَـهُ إذا مـا فارقـت   وَجَناتِـهِ عـادَت إلـى خَدَّيـهِ[٥]

(١) ديوان ابن عبد ربه: ٩٠.
(٢) ينظر: المفاهيم الجمالية في الشعر العباسي: ٥٠.
(٣) جمال المرأة عند العرب: ٩٨.
(٤) ديوان ابن هانئ: ١٩٣.
(٥) شعر الرمادي: ١٣٤.

وهذا ابن عبد ربه يصف الخد الأسيل الناعم بقوله:

يـا مُـديرَ الصُّـدغ فـي الخَـدِّ الأسـيلْ ومُجيـلَ السِّـحر بـالطّرفِ الكحيـلْ[1]

ويقول في أخرى:

بَيضـاءَ يحمـرُّ خَـدَّاها إذا خجلـتْ كمـا جَـرى ذهبٌ فـي صـفحَتي وَرَقِ[2]

والخد عند ابن عبد ربه لا يقل إثارته الحسرة واللوعة عن الخصر أو الصدر لأنه أعطي الجمال كما أعطي لباقي أجزاء الجسد، يقول:

يـا ذا الـذي خـطّ الجمـالُ بخَـدِّهِ خَطّـين هاجـا لوعـةً وبَلابِـلا
مـا صَـحَّ عِنـدي أنَّ لحظَـكَ صـارمٌ حتّـى لَبِسْـتَ بِعارِضَـيكَ حَمـائلا[3]

وأما المعتمد بن عباد فيربط بين لون الخمرة ولون الخدود في قوله:

الصُّـبحُ قَـد مَـزَّقَ ثَـوبَ الـدُّجى فَمَـزِّقِ الهَـمَّ بِكَفـي مَهـا
خُـذ باسـمِها مِـن ريقِهـا قَهـوَةً فـي لَـون خَـدّيها تُجَلّـي الأَسـى[4]

كذلك وجدنا من يربط بين جمال الخد واحمراره وبين الرايات التي امتزجت بالدماء المسفوكة، كقول ابن هانئ:

(١) ديوان ابن عبد ربه: ١٤٥.
(٢) م. ن: ١١٧.
(٣) ديوان ابن عبد ربه: ١٤١.
(٤) ديوان المعتمد بن عباد: ١.

فضَـعي اللّثـامَ فقَبـل خَـدّك ضُـرّجَتْ رايـاتُ يحيـى بالّـدم المسـفوك[1]

كذلك يشبه يحيى بن هذيل الخدود بالرايات في قوله:

وكـأنَّ البنـودَ أجنحـةُ الطّيْـرِ يُرفـرفنَ إذ حوَتْهـا القيـودُ
وكـأنَّ المحمـرَّةَ اللّـونِ فـي الأُفْـقِ خـدودٌ يَزينهـا التَّوريـدُ[2]

إنّ قيمة الخد الجمالية وما يضفيه على المرأة من خلال الألوان التي يتلون بها تعطيها بعدًا نفسيًّا يُسحَرُ من خلالها المتلقي، بهذا استطاع الشاعر الأندلسي أن يعبر عن إحساسه نحو هذا الجمال (الخد) وإعطائه حقه من خلال شعره.

الثغر و(الأسنان):

إنّ جمال الثغر متكوّن في صفائه وطيبه، إذ يمثل الفم وما يحويه من أسنان وريق صفة جمالية أخرى تتمتع بها المرأة، وهو ينبوع متعة يسعى الرجل إلى الارتواء منه عن طريق النظر، أو القُبلة أو اللثم، وارتبط في الشعر العربي بمعاني العطش وحب الارتواء[3]. أما الأسنان فيتمثل جمالها في صفاء لونها الناصع البياض وبريقها اللامع[4]، مشبهين إياها باللؤلؤ الذي ينتظم في سلك طويل يبهر الناظر ويسرُّ العين ويشرح القلب. فابن درّاج القسطلي يصور الأسنان باللؤلؤ في انتظامها في قوله:

أَرْيٌ تَخَلّـلَ نَظْـمَ سِـلْكَيْ لُؤْلُـؤٍ فِـي جانِبَيْـهِ جَنَّـةٌ ونَعـيمُ
نَمَّـت عَلَيْهـا طـرَّةُ المِسْـكِ الَّـذِي أَزْرى عَلَيْـهِ رَحِيقُـكَ المختـومُ[5]

وأحمد بن فرج يمزج بين درر كلام الحبيبة وأسنانها التي هي الدر أيضًا في قوله:

تبسَّـمَ عـن دُرٍّ كـدرُ كلامِهـا فللـهِ سـمطا ذَراهـا وابتسـامِها
إذا ضَـحِكَتْ أو حَـدَّثَتْ قلـتُ هـذه جـواهرُ فضَّـتْ مـن حلـي نظامِهـا[6]

---

(١) ديوان ابن هانئ: ٢٦٤.
(٢) شعر يحيى بن هذيل القرطبي: ٧٨.
(٣) ينظر: الصورة البدوية: ٣٣٦.
(٤) ينظر: المفاهيم الجمالية في الشعر العباسي: ٤٦.
(٥) ديوان ابن دراج القسطلي: ٣٥٧.
(٦) أحمد بن فرج (بحث): ٢٢٨.

و هذا مذهب الر مادي أيضًا في مشابهة كلام الحبيبة وثغر ها مع أسنانها با لدر النفيس في وصفه:

يـــا حبَّـــذا الفَلَـــجُ المعســـولُ ريقتُـــهُ وكـــلُّ حـــرفٍ بـــه مـــن لفظـــهِ خَطَـــرا
ثغـــرٌ كحُـــقٍّ بـــه الـــدرُّ النَّفـــيسُ غَـــدَا مـــــلآن منـــــهُ فمنظومًـــــا ومُنتثـــــرا
يجـــاوزُ النطـــقُ حســـنَ الثَّغـــر منتبـــذًا كأنَّهـــــا درَرٌ قـــــد أرســـــلتْ درَرَا[1]

ومثله قول ابن شهيد:

فأبْصـــــرْتُ وجْهًـــــا حكـــــاهُ الهِـــــلال وثغـــرًا حكـــى الـــدُّرّ لمّـــا ابْتَســـمْ[2]

أما ابن عبد ربه فيذهب أبعد من ذلك حين يجعل من ابتسامتها و بروز أسنانها البرق الذي يبدو ويختفي، فبياضه يظهر حين ظهورها ويختفي لما تختفي، يقول:

يـــا فِتْنـــةَ بُعثـــتْ علـــى الخَلـــقِ مـــا بينَهـــا والمـــوت مـــن فَـــرْقِ
شَـــمسٌ بَـــدَتْ لـــكَ مـــن مَغاربهـــا يَفْتـــرُّ مبْسِـــمُها عـــنِ البَـــرْقِ[3]

ويشبّه المعتضد ابتسامة محبوبته و بروز أسنانها بالجواهر، وأما ريقها فهو من أفضل أنواع الخمر الذي يُذهِبُ العقول ويسبيها، يقول:

يـــا غـــرة تســـخر بالبـــدرِ ومقلـــةً تنفـــث بالســـحرِ
ومبســـمًا نظـــم مـــن جـــوهرٍ ومـــاؤهُ مـــن أعطـــر الخمـــرِ[4]

مما تقدم يتضح أنّ الشاعر الأندلسي كانت رؤيته لجمال ثغر المرأة وأسنانها هي رؤية عربية قديمة موروثة تمامًا، فالثغر الباسم الذي يشبه الدر، وبياضه كالبرَد، وهذا الفم المتبسم الذي ينشر عبيره من خلال ريقها العطر، هذه التشبيهات كلها و صورها متوافرة في الشعر العربي بكل عصوره وأماكنه.

ونجد الشاعر الأندلسي قد تناول أجزاءً أخرى من جسد المرأة، واصفًا قيمتها الجمالية الحسية، و من هذه الأجزاء: الصدر والخصر، فصدر المرأة من أهم عناصر

(١) شعر الرمادي: ٦٨. فلج الأسنان: أي تباعدٌ بينها. لسان العرب: مادة (فلج).
(٢) ديوان ابن شهيد: ١٥٣.
(٣) ديوان ابن عبد ربه: ١٢١.
(٤) ديوان المعتضد بن عباد (بحث): ١١٣.

جمالها وأقوى مواضع الإغراء، شبهه بالرمانة لاستدارته وتأثيره في المحبين تأثيرًا لا يقل عن تأثير العيون وسحرها(١).

فالرمادي يصف ليلة تمسك فيها يده كأس خمر ويده الأخرى نهد كاعب وشبهه بالتفاح، يقول:

ليــالي يمينــي تقــبضُ الكــاسَ مــرَّةً   وأَخـرى لهـا قـبضٌ علَـى نهـدِ كاعِـبِ
نهــــودٌ كتفَّــــاحِ اللّجــــينِ كأنَّهــــا   لتــدويرها قــد أُفرغــتْ فــي قوالــبِ(٢)

ويشبهها في أخرى بالرمان كما أسلفت، يقول:

تعــانقَ فــي الأضــلاعِ قلبــي وقلبُهــا   وقــامَ لنــا وحــيُ العيــونِ بــأذرعِ
وضــمَّتْ علَــى رُمَّانَتَيهــا كأنَّمــا   تُعــانقني كفَّــا أســيرٍ مكنَّــعِ(٣)

وأما خصر المرأة فجماله ينحصر في كونه ضامرًا غير مترهل، دقيقًا وناحلاً، ويظهر جمالها من خلال ثقل ردفها ودقة خصرها(٤)، يقول ابن جهور:

أنــار لــي وجهــه لــيلاً فخلــت بــه   بــدرًا تمامًــا علــى الآفــاق يطلــعْ
ومــر يمشــي دقيــق الخصــر يجذبــه   ردف فقلــت: أدركــوه قبــل أن ينقطــعْ(٥)

أو كقول ابن عبد ربه الذي يضفي على خصرها صفة الرقة والرشاقة من كثرة النحول في قوله:

يَــا مَــنْ تَقَطَّــعَ خَصْــرُهُ مِــنْ رِقَّــةٍ   مَــا بَــالُ قَلْبِــكَ لا يَكُــونُ رَقِيقَــا(٦)

وهذا الوصف كوصف الرمادي حين ينعت جسمه الناحل بخصر المحبوب الناحل أيضًا، فمن كثرة نحوله ودقته فهو كالمنفصل، يقول:

تَــرَكَ الجِسْــمَ يُحَــاكي خَصْــرَهُ   وَهْــوَ مِــن رِقَّتِــهِ كَالمُنفَصِــلِ(٧)

---

(١) ينظر: المرأة في الشعر الأندلسي (رسالة ماجستير): ١٥٩.
(٢) شعر الرمادي: ٥٤.
(٣) م. ن: ٨٤.
(٤) ينظر: المفاهيم الجمالية في الشعر العباسي: ٥٤.
(٥) يتيمة الدهر: ٤/٢.
(٦) ديوان ابن عبد ربه: ١٢٠، وينظر: ١١٨.
(٧) شعر الرمادي: ٩٩.

ومن الشعراء من جمع في شعره عناصر جمالية عدة تخص الجانب الحسي للمرأة، فهذا ابن هانئ يجمع في بيت واحد جماليات لونية عدة وهي سواد الشعر وحمرة الخدود وبيض الترائب ولعس اللثى، فهي لوحة متكاملة الجوانب أطرها الشاعر من خلال بيت واحد، يقول:

بسُودِ الغدائِرِ حُمْرِ الخُدو دِ بِيضِ التّرائبِ لُعسِ اللَّثَى(١)

ومزج عبادة بن ماء السماء بين الشعر الأشقر ووجه مضيء بالبياض مع جمال العيون في بيتين، يقول:

وكأنَّ التفافَ شعرِكِ جعدًا فوقَ وجهٍ يضيءُ ضوء السّراج
طَبق مُكفأٌ من التِّبرِ محضًا تحتَهُ للعيونِ لعبَةُ عاجِ(٢)

أما المرواني الطليق فيطربنا من خلال قصيدة يسرد فيها جمال حبيبته، متنقلاً بين بهاء الوجه وحمرة الخد، وجمال سحر العين، ونحافة الخصر الذي أثقل بردفها، يقول:

قمريُّ الوَجهِ أبدى بضحى وَجهِهِ خَطَّ الغَوالي غَبَشا
ضُرِّجت خدّاهُ حَتّى خِلتُها عَضَّ طَرفي فيهما أو خَدَشا
وَحَوَت عَيناهُ خمرًا لَم يَرُح صاحيًا مِن سُكره صاحي الحَشا
فكأَنَّ الصبحَ في وَجنَتِه قَد سَقاه طَرفُهُ حَتّى انتَشى

ومنها:

ثَقُلَ الخَصرُ بردفٍ راجح مِثلَما أَثقَلَتِ الدَّلو الرِّشا
فَإذا ما ظَلَّ يَومًا قاعِدًا خِلتَهُ أَوطَئَ مِنهُ فُرُشا(٣)

وأما مقاييس الجمال الحسية عند الأندلسيين بشكل عام فيحددها المعتضد ببيت شعر يقول فيه:

غَزاليَّةُ العَينَينِ شَمسيَّةُ السَّنا كَثيبيَّةُ الرِّدفَينِ غُصنيَّةُ القَدِّ(٤)

(١) ديوان ابن هانئ: ١٧٩.
(٢) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس: ١٢٥.
(٣) مع شعراء الأندلس والمتنبي: ٨٥-٨٦.
(٤) ديوان المعتضد بن عباد (بحث): ١١٠.

فعينا ها كعيون الغزال وسعًا و هي كبياض الشمس نورًا، مثقلة الأرداف هضبًا، غصنية القد ميلاً. فهو قد أجمل مقاييس جمال المرأة من دون الدخول في تفاصيل أجزائها.

مما تقدم نلحظ أنّ الشعراء لهم أذواق مختلفة فيما يتعلق بلون المرأة، لكنهم يتفقون بعض الشيء على الأوصاف الجسدية للمرأة المثال الذي ينشدونه، فهم يحبذون المرأة متوسطة الطول، ذات صدر ناهد وأرداف ممتلئة، ووجه متناسق القسمات ليتوج جمال الجسم الرشيق؛ لأنها أول ما يطالعنا من محاسن المرأة ومفاتنها، ولا بد لهذا الوجه من أن تزينه عينان واسعتان وخدان أسيلان متوردان، لذا نراهم قد شبهوا المرأة الجميلة بكل شيء جميل لهم(١). فحين يعجبهم منظر جميل يمزجونه بجمالها، وحين ينتشون بشرب الكأس يمزجونها بريق الحبيب، وهكذا استمد الشاعر الأندلسي من جمال المرأة خياله الشعري، فعطره بعطرٍ لن يزول أبدًا.

إنّ الجمال الحسي غير ثابت فهو زائل مع تقادم العمر، أما إذا مُزج الجمال الحسي بجمال معنوي فذاك هو الجمال الدائم؛ لأنّ الجمال الحسي سيغدو ذكرى مع مرور الوقت، وتبقى المعاني الروحية متألقة على مر العصور، حتى وإنْ وُجد الجمال المعنوي حسبُ دون الحسي فهو كافٍ عند كثير من الناس ـــ ولا سيما الشعراء العذريين ـــ فهو أقوى تأثيرًا في النفس لبقائه وازدياده، في حين أنّ الجمال الحسي تزيده الأيام ذبولاً وعوامل الفناء هدمًا، وشتان بين جمال يتطرق إليه القدم وجمال تزيده الأيام جدة وحيوية(٢).

والأندلسي افتُتِنَ بجمال المرأة الحسي من خصر وردف وثغر وشعر... إلخ، لكنه سحر بـ (جمالها الروحي) أيضًا، وليس جمال الروح أقل تأثيرًا في نفس الرجل من جمال الجسد، بل لعله أعمق منه أثرًا، وأبعد غورًا، وأقوى جذبًا. وهذا الجمال يصعب إدراكه لكونه لا يُدرَكُ بإحدى الحواس الخمس كالحسي إلا في بعض نماذجه، مما يستلزم وجود عقل قادر على إدراك ما هو غير منظور، فضلاً عن وجود نفس قادرة على تقبل الإيحاءات وإدراك المعنى من وراء المادة(٣)، والشاعر الأندلسي كانت عنده مثل هذه المقدرة على فهم ما تبتغيه المرأة من وراء مشيتها أو حديثها أو عطرها وزينتها ونوع لباسها... إلخ.

---

(١) ينظر: مفهوم الجمال في الثقافة العربية (بحث): ٥٥.
(٢) ينظر: مملكة الجمال والحب: ٥.
(٣) ينظر: الصورة البدوية: ٣٦٢.

والذي دفع الشاعر الأندلسي إلى الاهتمام بالجانب المعنوي هو امتلاكه قلبًا رقيقًا ونفسًا مرهفة، وقد دفعه هذا الامتلاك إلى الإحساس بهذه الروح الجميلة التي تسكن داخل هذا الجسد الجميل، ولئن أثار جمال الجسم شهواتهم فقد أثار في نفوسهم وأرواحهم جمال الروح أيضًا(١).

فابن عبد ربه قد سقي بكأس الموت من أعين الحور، وأخذتْ لبّه حلاوة المنطق الخارج من ثغر باسم، وشبه نطقهن بالدرر المنثورة، يقول:

يـــا لَيْلَـــةً لـــيسَ فـــي ظَلمائِهـــا نُـــورُ ... إلا وجُوهًـــــا تُضـــــاهِيها الـــــدَّنانِيرُ
حُـــورٌ سَـــقَتْني بِكـــأسِ المَـــوْتِ أعْيُنُهـــا ... مـــاذا سَـــقتنِيهِ تِلْـــكَ الأَعْـــيُنُ الحُـــورُ
إذا ابْتَسَـــمْنَ فَـــدُرُّ الثَّغـــرِ مُنْـــتَظِمٌ ... وَإنْ نَطَقْـــنَ فَـــدُرُّ اللَّفـــظِ مَنْثُـــورُ(٢)

(١) ينظر: دفاتر أندلسية: ٢٦٣.
(٢) ديوان ابن عبد ربه: ٧٢، وينظر: ٢٧.

ولأحمد بن فرج الجياني في هذا المعنى قوله:

تبسَّمَ عن دُرٍّ كدرُ كلامِها ... فللهِ سمطا دُرِّها وابتسامِها
إذا ضَحِكَتْ أو حَدَّثَتْ قلتُ هذه ... جواهرُ فضَّتْ من حلي نظامِها
وكم خلتنا سكرى بخمر جفونها ... إذا مال بالأعطافِ حُسنُ قوامِها[1]

وأما الحاجب المصحفي فيقول:

إن فاه أشريت الضلوع هوًى ... حتى كأنّ جميعها أذنُ
لا تنكروا كلف الضلوع به ... فحديثه لوجيبِها سكنُ[2]

فهذه الضلوع تتلهف لسماع حديث المحبوبة، وكل ضلع منها يتشوق لهذا الحديث؛ لأنّ كلام المحبوب أنغام تُعزف على أوتار قلب الشاعر متخذةً منه سكنًا لها[3].

ومن طريفه أيضًا تشبيه حديث المحبوبة بالدر المتناثر في قوله:

كلمتني فقلت درٌ سقيطَ ... فتأملت عقدها هل تناثر
فازدهاها تبسمٌ فأرتنا ... عقد درّ من التبسم آخر[4]

ويذهب الشاعر الأندلسي أبعدَ من هذا حين جعل من عيبٍ في النطق ألا و هو اللثغ صفة تجمل قائلها، وتزيد من حسن المرأة؛ لأن في لسانها طفولة لم يمسها تقدم عمر ها، وهذا مما يزيد في تعلق القلب بها كما يتعلق بالطفل.

فالرمادي يطلب إعادة الحرف الذي يلثغ به جاعلاً من هذا العيب النطقي صفة محببة لقلبه، وهو يذكر واصل بن عطاء الذي كان يلثغ بحرف الراء، إذ كان يتجنبه في حديثه وخُطَبِهِ، فالرمادي يقول إنّ واصلاً هذا لو سمع هذا اللثغ من محبوبته لما أسقط الراء من كلامه؛ لأنها تزيد من حسن قائله، يقول:

أعِد لَثغَةً لَو أنَّ واصلَ حاضرٌ ... لِيَسمَعَها ما أسقَطَ الرَّاءَ واصِلُ[5]

وأما مشي المرأة وكيفيته فلم يغفل عنها الشاعر الأندلسي، وتعد مشيتها منبعًا ومظهرًا لمفاتنها الجسدية، لكنها تحتاج إلى عين خبير كي يعلم ما تخفي من وراء سكناتها

(١) أحمد بن فرج (بحث): ٢٢٨.
(٢) ما تبقى من شعر الحاجب المصحفي (بحث): ١٩٩.
(٣) ينظر: الحاجب المصحفي حياته وشعره، دراسة أدبية تاريخية (بحث): ١٨٨.
(٤) ما تبقّى من شعر الحاجب المصحفي (بحث): ١٨٤.
(٥) شعر الرمادي: ١٠١، وينظر: ديوان ابن شهيد: ١١٦.

وحركاتها، والغالب على «حركة المرأة هي المشية المتمهلة بما يتناغم وطبيعتها مما يضفي جمالاً على حركتها»(١).

فابن شُهيد يذكر جمال مشي المرأة وصغر خطواتها حتى إنه يشبهها بمشي العصفور، مما يدل على قيمة جمالية لمشي هذه المرأة التي تسير بخطوات قصيرة متمهلة لتسحر وتجذب نحوها الشاعر، يقول في وصف هذا المشي:

فَمشَتْ نَحْوِي وقد مُلِّكْتُها	مِشْيةَ العُصْفورِ نَحْوَ الثَّعْلَبِ(٢)

فهذه المرأة كانت خائفة مترددة، لذلك كانت تقدّم رِجلاً وتؤخر أخرى، فخطواتها متمهلة كالعصفور الذي اعتراه الخوف وهو يسير إلى حتفه (الثعلب).

ويذكر ابن حزم الأندلسي كيف تتهادى المرأة في مشيتها آسرةً للألباب في وقع خطواتها، وهي تمشي على مهل دون إسراف أو بطء يشين تهاديها ويعكر صفو وقع أنغام مشيها على قلب من يسمعها ويراها، فهي كالحمامة خفةً والنرجس في الروض التي تتهادى حين تحركها أنسام الربيع، يقول:

كأنها حين تخطو في تأوّدِها	قضيب نرجسةٍ في الروض ميّاسُ
كأنما خُلدها في قلب عاشقِها	ففيه من وقعها خطر ووسواسُ
كأنما مشيها مشي الحمامة لا	كدٌّ يُعابُ ولا بطءٌ به باسُ(٣)

وأما يحيى بن هذيل فيشبه مشي النساء نحو الركاب بمشي الأسير الذي قد أُثقِلَ بقيوده، فهو بطيء الحركة قصير الخطوات، فهذه النسوة قد قيدن بأرداف ونهود ثقال لا يستطعن المشي بسببها، هنا نلحظ المزج بين الجانب الحسي والمعنوي في إبراز جمال المرأة، يقول:

مَشَينَ إلى الرّكابِ وقد أنيخت	كما يَمشي الأسارى في القُيُودِ
تُغازِلُنا مُلاءُ الخزِّ عمدًا	بأطرافِ الرّوادفِ والنّهودِ(٤)

---

(١) الصورة البدوية: ٣٦٢.
(٢) ديوان ابن شهيد: ٩٣.
(٣) ديوان ابن حزم الأندلسي: ٩٠.
(٤) شعر يحيى بن هذيل: ٨١، وينظر: شعر الرمادي: ٨٩.

وهذا علي بن أبي الحسين (ت تقريبًا سنة ٤٣٠ هـ)[١] يشبه مشية المرأة بالسحاب البطيء الحركة في قوله:

وكـــأنَّ مشـــيتَهُ تَهَـــاديَ ديمـــةٍ ... والوصـــلُ يبـــرُقُ والتَّجنِّـــي يرعُـــدُ
نشـــوانُ مِـــن سُـــكْرِ الشَّـــبابِ كأنَّـــهُ ... غصـــنٌ تجـــورُ بـــه الرِّيـــاح وتقصِـــدُ[٢]

ومن هنا نرى أنّ الشعراء الأندلسيين قد اتفقوا في وصف مشية المرأة بالهدوء والفتور، وفي هذا دلالة نفسية؛ لأنّ البطء في المشي والتثاقل في الحركة يدلان على ميل النساء إلى عدم العنف، وهذا راجع إلى تركيب أبدانهنّ، فهنَّ أَلِفْنَ السكون داخل البيوت ورعاية الأطفال وتربيتهم، ولهذا البطء والهدوء دلالة اجتماعية أيضًا لكونها منعمة مخدومة لا يكلفها أهلها عملاً في البيت ولا تعاني من متاعب الحياة الدائمة والتنقل، كما هو حال المرأة البدوية في الجزيرة العربية[٣]؛ مع أنّ الشاعر العربي اعتاد وصف مشي المرأة بالتمهل والسكون والبطء لكونهم ينشدون هذه القيم الجمالية، ويرغبون وجودها في نسائهم.

ولم يكتف الشاعر الأندلسي بالجمال الذي يراه أو يحسه، بل إنه تأثر بالطيف أو الخيال الذي يأتيه، فالمرأة قد سحرته بجمالها فتعلق قلبه بها فأخذ خيالها وطيفها يأتيانه في كل حين، فهذا ابن عبد ربه يذكر زيارة طيف الحبيبة إليه، وكيف أنه ظل ملازمًا له إلى الصباح جاعلاً يده وسادة لها، فخيال المحبوب يصل إلى الشاعر على الرغم من هجران الحبيب، يقول:

سَـرى طَيْـفُ الحَبيـبِ علـى البِعـادِ ... لِيُصْـــلِحَ بَـــيْنَ عَيْنـــي والرُّقـــادِ
فَبـاتَ إلـى الصَّـباحِ يَـدي وِسـادٌ ... لِوَجْنَتـــه كمـــا يَـــدُهُ وِســـادي
بِنَفْســـي مَـــنْ أعـــادَ إِلـــيَّ نَفْســـي ... وَرَدَّ إِلـــى جَوانِحِـــهِ فُـــؤادِي
خَيـــالٌ زارَنـــي لمَّـــا رآنـــي ... عَـــذَلْني عَـــنْ زيارَتـــهِ عَـــوَادي
يُواصـــلُني علـــى الهِجْـــرَانِ مِنْـــهُ ... وَيُـــدْنِيني علـــى طُـــولِ البعـــادِ[٤]

(١) علي بن محمد بن علي بن الحسن، درس بقرطبة، وكان أديبًا بليغًا مشاركًا في النحو حافظًا للغات ذاكرًا للآداب. ينظر: التشبيهات من أشعار أهل الأندلس: ٣٢٤، جذوة المقتبس: ٤٨٩/٢، بغية الملتمس: ٥٤١/٢.
(٢) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس: ١٤٣.
(٣) ينظر: الصورة البدوية: ٣٦٤.
(٤) ديوان ابن عبد ربه: ٥٧.

وابن حزم يأتيه طيف المحبوبة على الرغم من موتها فتعيد عهدها معه كما كانا، يقول:

أتى طيفُ نُعْمٍ مَضجعي بعد هدأة ... ولليلِ سلطانٌ وظلٌ ممددُ
وعهدي بها تحت التراب مقيمةً ... وجاءت كما قد كنتُ من قبل أعهدُ
فعُدنا كما كنا وعاد زمانُنا ... كما قد عهدنا قبل والعودُ أحمدُ(١)

إنّ الشاعر بذكره للخيال أو الطيف يريد أن يبقى متصلاً مع الحبيب حتى في حال الهجر أو الموت، فإنّ جمال المرأة المحبوبة وحسنها لا يفارقه، فهي معه في حله وترحاله، إذ يثبت من خلال هذا الخيال مدى تعلق قلبه بالمحبوبة وبجمالها التي تظل معه في كل حين. فالرمادي يذكر زيارة خيال محبوبته على الرغم من أنها قد نكثت عهدها ولم تعد تصله، إلا أن طيفها بات ملازمًا له، يقول:

خَيالٌ لِمَن حالَ عَن عَهدِهِ ... أَتاني وَما كُنتُ في وَعدِهِ
تَمادى إِلى الوَصلِ حَتّى ... أَتى الصَّباحُ فَعادَ إِلى ضِدِّهِ
كَأَنيَ قَد بِتُّ في شَعرِهِ ... أُحَمِّ وَأُصبَحتُ في خَدِّهِ(٢)

ومما اهتمت به المرأة الأندلسية أنواع الملابس وأصناف زينتها التي تضعها لتعطيها الرونق والجمال الإضافي، وهذا مما تغنى به الشاعر الأندلسي أيضًا وزاد من تعلق قلبه بجمالها ومظهرها الخارجي، مما أضاف مزجًا من نوع آخر بين الجانبين الحسي والمعنوي في تكوين القيمة الجمالية للمرأة الأندلسية، إذ تعطي المرأة دافعًا معنويًا وتزيد من ثقتها بجمالها وحُسن مظهرها، ومن ثَمَّ تضمن التأثير فيمَن حولها.

فالمعتمد يصور جمال محبوبته التي تفوح بالعنبر، وهي متممة مع زينتها - الحلي - جمالها، وهذا ما منع الشاعر من زيارتها، فخوفه من الرقيب والحاسد كخوفه من سحرها عليه، فبياض الجبين وأصوات حليها وعطرها الفواح تمنعه من الزيارة، ثم يعلل نفسه بتستر الجبين وإزالة الحلي، لكن كيف يزال عبقها وعطرها المتمثل بـ (العرق) الفواح، إذ هو له بالمرصاد، يقول:

ثَلاثَةٌ مَنَعَتها عَن زيارَتِنا ... خَوفُ الرَقيبِ وَخَوفُ الحاسِدِ الحَنِقِ
ضَوءُ الجَبينِ وَوسواسُ الحَلي وَما ... تَحوي مَعاطِفُها مِن عَنبَرٍ عَبِقِ
هَبِ الجَبينَ بِفَضلِ الكُمِّ تَستُرُهُ ... وَالحَليَ تَنزَعُهُ ما حيلَةُ العَرَقِ(٣)

(١) ديوان ابن حزم الأندلسي: ٥٢.
(٢) شعر الرمادي: ٦٧، وينظر: ٧٥.
(٣) ديوان المعتمد بن عباد: ٢٢.

ويحدثنا المعتمد أيضًا عن فتاة غلامية مزينة الشفاه بخطوط سوداء، وفي هذه الصبغة السوداء التي في شفاهها وعيونها الزرق ولون وجهها الأبيض لمفارقة ومزج جميل تظهر فيه جمالها وحسنها، وهذه الفتاة تمرر المسواك على أسنانها واضعة خطوطًا أخرى من المسك المائل إلى الخضرة في مكان الشارب حتى خُيّل للشاعر أنها قبلت قوس قزح، فترك الأخير ألوان الطيف كلها على وجهها المتماوج بالأصباغ والألوان الجميلة، يقول:

غُلاميَـةٌ جـاءَت وَقَـد جَعَـلَ الـدُّجى ... لِخـاتَمَ فيهـا فَـصٌّ غالِيَـة خَطّـا
فَقُلـتُ أُحاجيهـا بِمـا فـي جُفونِهـا ... وما في الشِّفاهِ اللُّعسِ مِن حُسنِها المُعطّى
مُحَيَّـرَةَ العَينَـين فـي غَيـرِ سَـكرَةٍ ... مَتـى شَـرَبت أَلحـاظُ عَينَيـك اسـفَنطا
أَرى نَكهَـةَ المِسواك فـي حُمـرَةِ اللَّمـى ... وَشـارِبَك المُخضَـر بالمِسـكِ قَـد خُطّـا
عَسـى قُزَحًـا قَبَّلتِـهِ فَأخالُـهُ ... عَلـى الشِّـفَة اللَّمياء قَـد جـاء مُختَطّـا[1]

واشتهرت المرأة الأندلسية في مجال التزين والأناقة، وتميزت بجمالها وإظهار أناقتها والتفنن في اختيار ما يناسب قوامها وأنوثتها من الملابس والحلي، إذ كانت تلبس ملابس خاصة للصباح وأخرى للمساء، وهذا ما أقرّه الشاعر إدريس بن اليماني (ت٤٧٠هـ)[2] في وصف لطيف:

سرتْ في قميصِ الصبحِ وهو جسيدُ ... فأبلـتْ قمـيصَ الليـلِ وهـو جديـدُ
ولما استمدَّ الأفقُ من نورِ وجهِها ... تقاصـرَ بـاعُ الليـلِ وهـو مديـدُ[3]

ونلاحظ التفنن في التجمل بالثياب والتزين بالحلي في قول ابن زيدون:

عَلـى خَصـرِها مِنـهُ وِشـاحٌ مُفَصَّـلٌ ... وَفـي رَأسِـها تـاجٌ وَفـي جيـدِها سِـمطُ[4]

إنّ الشاعر الأندلسي فُتِنَ بجمال المرأة وزينتها (ملابسها وحليها)، وهي من الجمال الحسي، إلا أنه حوّلها من مظاهر الجمال المادي إلى قيم الجمال المعنوي؛ لأنه جعل من زينتها ولباسها عنصرًا لإبراز سمات شخصيتها ومدى تأثيرها وتأثره بهذا التجمل، فذقاء المرأة وترفها وجمالها إنما هي كناية عن شرفها ومنعة أخلاقها، وكناية عن شخصيتها

(١) م. ن: ١٢٠. اللعس: سواد اللثة والشفة. لسان العرب: مادة (لعس). الأسفاط: الخمر. ينظر: ديوان المعتمد بن عباد: ١٢٠.
(٢) أبو علي إدريس بن اليماني العبدري اليابسي، شاعر جليل عالم، وشعره كثير، وقد نُسب إلى بلده اليابسة وهي من جزر الأندلس. ينظر: جذوة المقتبس: ٢٦١/١، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ق٢٥١/٥/٣، بغية الملتمس: ٢٨٩/١، المغرب في حلى المغرب: ٤٠٠/١.
(٣) إدريس بن اليماني اليابسي (ت٥٤٧٠)، حياته وشعره: ٣٠.
(٤) ديوان ابن زيدون: ٦٣.

وما تتمتع به من أدب رفيع كرفعة وأناقة ما تلبس؛ لأن جمال الظاهر يعكس جمال الروح والباطن.

نخلص مما تقدم أن المرأة الأندلسية كانت قيمة جمالية أثارت بجمالها قريحة الشعراء الأندلسيين متغزلين ومادحين، ومفتونين أمام هذه الصفات التي ملكت نفوسهم وأثارت أحاسيسهم فخلدوها في شعرهم، إلا أن الصفات الحسية (الجسدية) كانت أكثر حضورًا من صفاتها المعنوية، وهذا ربما راجع إلى طبيعة البشر ومدى تأثرهم بالجانب الحسي المادي أكثر مما يؤثر فيهم الجانب المعنوي والروحي، مع وجود بعض التمازج والتداخل بين الجانبين في بعض النماذج الشعرية التي أوردناها، وهذا راجع إلى الطبيعة البشرية، ولأن الإنسان مفتون بالجانب الجسدي كثيرًا مع تمنيه العفة والخلق وحسن الحديث لمن يحب ويهوى، ولكن ليس كل ما يتمنى المرء يدركه، ويبقى الكمال لله سبحانه وحده.